



١٩٢٤

بِقَدْمَه
الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّزِيزِ الدُّرِي

الطبعة الثالثة

مقدمة الطبعة الثانية

مرت سنون عديدة منذ صدرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب ، ولكن الآراء التي احتوتها لم تتغير ولم يصيّرها الا توضيح او تحديد . ولم اجد خلال هذه الفترة التي قضيتها بين درس وتدريس ما يدعوني الى تغيير آرائي ، فاكتفيت باعادة كتابة بعض الفقرات واضافة بعض الملاحظات التفصيلية .

ثم رأيت ان اضيف رسالة ثالثة الى رسالتى الطبعة الاولى ، وهي مجموعة ملاحظات وآراء في تطور المجتمع العربي في صدر الاسلام . ولعل فيها بعض التكرار ولكنها ضرورية للإشارة الى التطور الاجتماعي الاقتصادي بصورة متصلة ، لتكوين فكرة اشمل عن هذه الفترة .

هذا وارجو ان يعطي الكتاب صورة شاملة لتاريخ صدر الاسلام بخطوطه الاساسية وبما تحمله من تيارات كبرى واتجاهات عامة . ونحن احوج ما نكون الى فهم تاريخنا فهماً عميقاً شاملأً .

عبد العزيز الدوري

خطب البحث

الرسالة الاولى - مع المؤرخين :

- (١) تقسيم التاريخ الى ثقافي واقتصادي وسياسي واجتماعي وضعف ذلك . مثل من تاريخ صدر الاسلام لتوضيح ضرر التقسيم ، ولبيان أهمية دراسة مختلف نواحي التاريخ في آن واحد .
 - (٢) خطر الهوى على التاريخ العربي : أثر الخزبية ، خطر الشعوبية ، وأمثلة لتوضيح ذلك من تاريخ العرب حتى العصر العباسي الأول .
 - (٣) اغفال المؤرخين (العرب) للعامل الزمني وللتطور الطبيعي في الحركات والتبدلات ونسبة ذلك الى اشخاص . أمثلة موضحة من النظام المالي ، والحركة القرمطية ، والدعوة العباسية .
 - (٤) أخطاء النساخين وأثرها في التشويه .
 - (٥) تدوين تاريخ العرب على أساس العوائل الحاكمة يؤثر على التسلسل ويورث بعض الغموض . مثل من صلة العصر العباسي بالعصر الأموي .
 - (٦) ضعف البحث التاريخي في فهم المصادر ونوعيتها .
 - (٧) أهمية نقد المصادر واتباع النظرة الشاملة في البحث .
 - (٨) الروايات الموضوعة وقيمتها للمؤرخ .
- ختام .

الرسالة الثانية - نظرة شاملة الى صدر الاسلام :

جغرافية بلاد العرب وأثرها في تاريخهم . التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية المهددة لظهور الاسلام . أهمية المجتمع المكي . ظهور الاسلام وبعض مميزاته .

الصراع بين القديم (المبادئ القبلية) والجديد (الدعوة الإسلامية) وأهميته الكبرى في صدر الإسلام . الصراع في دور الرسالة وتدابير الرسول (ص) . الصراع في الردة وانتصار التيار الإسلامي . تقدم التيار الإسلامي في الفتوحات ، مع تحليل المؤثرات الاقتصادية . العوامل القبلية والاسلامية في نشوء نظام الخلافة وتطوره : انتخاب أبي بكر ، مجيء عمر ، الشورى . الفتنة الأولى نتيجة للصراع العنيف بين التيار الإسلامي والتيار القبلي ، يضاف إليها العامل الاقتصادي . استعلاء التيار القبلي ومجيء الأمويين . نقاط الضعف في الدولة الأموية عند تأسيسها . أثر التيار القبلي في العصر الأموي . توسيع نفوذ التيار الإسلامي وأثره — خطر الموالي ، النظام المالي وأثره . الاتجاه الإسلامي ، والبرنامج الاجتماعي الاقتصادي في الدعوة العباسية . العباسيون بين الوعود والتطبيق ، مشاكلهم ، وفشلهم في تحقيق التعاون بين العرب وغيرهم على أسس إسلامية .

الرسالة الثالثة — تطور المجتمع العربي في صدر الإسلام

أثر الإسلام في الوضع المعاشي للعرب . القبائل والأمصار . العرب المسلمين وأهل الذمة في مطلع الفترة الأموية . الموالي . الادارة الأموية . تحول « دور الهجرة » إلى مراكز حضرية . ملكية الأرضي . تطور وضع الجماعات غير العربية . الثورة العباسية وأثرها . التطورات الاقتصادية الجديدة : الزراعة والتجارة . الحياة المدنية . ظهور العامة . تبلور اتجاهات الموالي والفرس . ختام .

مع المؤرخين

التاريخ موضوع حي يقوم بدور بلغ في الثقافة ، وفي التكوين الاجتماعي والخلقي ، وله اثره في فهم الوضاع القائمة وفي تقدير بعض الاتجاهات والتطورات المقبلة . وهو يتاثر بالتيارات الفكرية وبالتطورات العامة . ولذا كثرت النظريات في تفسيره – بين تفسير ديني ، وفلسفي ، ومادي ، وعلمي – ، وتبينت الآراء في طرق تحليله بين من يجد فيه قوانين طبيعية ومن يؤكد على الحتمية فيه ، وبين من يرى فيه فرضي متصلة ، ومن يجد فيه عبراً وفوائد وخبرات . وهو موضوع ميسور بعض اليسر لمن اراد الكتابة فيه . لهذا كان مسرحاً لكثير من الهوى ولقليل من البحث الدقيق .

(١) وحقق التاريخ واسع ، يحتاج الى نظر بعيد والى صبر وأناء . ولقد قسم – لتسهيل بحثه – الى تاريخ سياسي ، وتاريخ ثقافي ، وتاريخ اجتماعي ، وتاريخ ديني ، وتاريخ اقتصادي . وأحيط ببحوث أخرى كالجغرافية التاريخية وكتاريخ الهجرات البشرية .

وتقسيم كهذا لا يستند الى أساس ، فضلاً عما يحفله من مخاطر . فالوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية مشتبكة تؤثر بعضها في بعض ويتأثر بعضها في بعض . والجغرافية التاريخية لها أثراها القوي ، وللهجرات البشرية دور حيوي في تكوينه وتطوره . ولا يمكن بحال فهم التطور في ناحية من النواحي ما لم يفهم في النواحي الأخرى . وهذا التقسيم يفصل نتائج البحوث بعضها عن بعض ، فيجعلها كلها مبتورة او متنافضة . وللذكر مثلاً يوضح هذه الناحية : إنك إن درست تاريخ صدر الاسلام ، وقابلت بين البحوث في النواحي المختلفة منه فهمت أن العرب حين خرجوا من الجزيرة اصطدموا بأمم متفسحة هزيلة ، فانهارت أمامهم . وقيل لك ان العرب سكنوا في معسكرات

منفصلة ليحافظوا على طابعهم العسكري ولتكون مهنتهم الحرب والجهاد ، وأنهم أخذتهم نشوة النصر ونشوة العصبية فاحتقروا من حولهم . وقيل لك انهم بدو أميون ، فاضطروا إلى الاعتماد على غيرهم في الادارة والكتابة ، وخصوصاً في النواحي المالية . وان درست تاريخ الحضارة قيل لك ان العرب سرعان ما خضعوا لحضارة الملل الخصيب وانجرفوا معها ، وأنهم اقتبسوا كل شيء من جيرانهم ، فصارت حضارتهم مرقة متنافرة .

ولكنهم مع ذلك يشيدون بالشعر الرفيع ، والأدب الفياض في صدر الإسلام ، وتدشك وفرة من اشتغل منهم بالحديث والتاريخ والتفسير والفقه . ثم تنظر في الناحية البشرية من التاريخ ، فيخبرونك أن الهجرة العربية التي لازمت الفتح دفعت بقبائل بدوية إلى أراض حضرية ، وإنها سبقتها هجرة عربية وهجرات سامية ، وانه كان في الملال الخصيب مجموعات من العرب عاشت طويلاً وتأثرت بالحضارات الأخرى ولا سيما السامية منها . وتجد مع ذلك أن الموجة إلى هذه الموجة كان قريشاً ، تلك القبيلة التي أنجبت زمرة لامعة من العبريات في السياسة والقيادة والدهاء والفقه والأدب . وهم مع ذلك يخبرونك أن قريشاً قبيلة بدوية . وبعد هذا تسأله أين صار عرب الجنوب ؟ ألم يكن لهم دور في الدولة الجديدة والحضارة الجديدة ؟ فلا تجد جواباً .

وهكذا تحرر وسط هذه الأحكام المتنافرة . ثم ارجع وناقش كيف احتقر العرب من حولهم ، وانفصلوا عنهم ، ثم تأثروا بهم بهذه السرعة الغربية ، وكيف اعزوا بكيانهم ثم تخلوا عنه هذه المرقة . ثم كيف تصفهم بعد هذا كله بالأمية ، ويروى لك أن الشاميين وحدهم رفعوا في صفين خمس مئة مصحف يطلبون التحكيم . وليت شعري أين صارت محاولات الرسول والصحابة لنشر التعليم ، الذي بدأ في مسجد المدينة ، وبشه الخلفاء في كل جهة من الجزيرة . ثم أنك حين تعود لبحث ثقافة العرب في صدر الإسلام تجدهم قد اتجهوا نحو العلوم الدينية من دراسة لحديث الرسول ، وحفظ القرآن وتفسيره ، واهتمام بالتشريع للأوضاع الجديدة التي قابلوها في الملال الخصيب والبلاد المفتوحة ، واهتمام بالشعر والعربية .

وتجد جنباً ذلك ازدهاراً شعرياً في وفرته وفي فنونه الجديدة واتجاهها للاهتمام بعرضه ، وعناية باللغة ووضع قواعد للنحو والصرف . وتجد بداية الدراسات التاريخية التي تتصل بسيرة الرسول ومعازيه وبالفتوريات و بتاريخ الأمة جنباً العناية بآيات العرب وآنسابهم . وأين هذا كله من ثقافة الأمم ما

وان استعرضت تلك الزمرة اللامعة التي رفعت لواء الحركة الثقافية ، وجدتها من الصحابة ، وابنائهم من نشأ بالمدينة وثقف على يدي الرسول (ص) ، ومن ثقف على ايدي هؤلاء في الامصار ، وعامتهم من العرب ينهم عدد ضئيل من موالיהם الذين نشأوا بينهم وثقفوا بثقافتهم .

وان رجعت الى الادارة وجدتها تبدأ ب بدايات بسيطة ، ثم تنموا وتطور . وضع الرسول (ص) الاسس الكافية للزكاة والغئمة ، ووضع اسس الجزية في الجزيرة . وجاء عمر بن الخطاب فنظم الادارة بصورة شاملة مستفيداً من التراث الموجود في البلاد المفتوحة وخاصة العراق والشام ومصر – وهو تراث تمتد جذوره ولا شك الى اقدم فترات تاريخ هذه البلاد – فتبعد تدابيره مختلفة من بلد الى آخر حسب ارثه . ولكننا نجد وسط هذا الاختلاف اتجاهات نحو التوحيد ومحاولة لتكوين كيان موحد . فهو يريد العرب أمة للجهاد ويضع الاعطيات والارزاق لتفق وهذا الاتجاه . وهو لا يستحسن اتجاه العرب الى الزراعة ويدركهم برسالتهم قائلاً : « فأئتم مستخلفون في الارض ، قاھرون لأهلها ... فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم الا امتنان ، امة مستعبدة للإسلام يجزون لكم (اي يعطون الجزية) تستصنون معاشهم وكذا نعمهم ورشح جباهم ، عليهم المؤنة ولكم المفعمة ... وامة قد ملأ الله قلوبهم رعبا » (١) .

وهو يعتبر الجزية والخرج رمزاً لخضوع من يؤديها ، ولكنه يدخل مبدأ اسلامياً جديداً وهو ان الدين ، لا الغلبة ولا العنصر ، اساس التمايز ، اما المسلم فلا يدفع ضريبة لبشر وان دفع زكوة او صدقة فهي للله . وتبدأ في عصره بدايات نحو تنسيق الادارة المالية وهو اتجاه أدى الى التوحيد بعد اقل من قرن .

وببدأ عمر اول خطوة نحو التعريب بإنشاء دواوين الجندي بالعربية ، وبنوش عبارات عربية على النقود السasanية والبيزنطية . وكان جمع القرآن وثبتت نصوصه ضماناً لوحدة اللغة ولتركيز اسسهها وضربة موجهة ضد التمسك باللهجات . هذا الى انه دستور الأمة والاساس الاول للتشريع .

وقد استعان العرب بالاعاجم في الادارة المحلية وخاصة في الجباية ودواوين الخارج معرفتهم بشؤونها . ولم يكن ذلك لأميتهم بل لضرورات تتصل بنظرتهم للدولة ،

(١) الطبرى (ط. المطبعة الخسنية) ج ٥ ص ٢٧٠

وخير توضيح لذلك هو قول عبيدة الله بن زياد : «كنت اذا استعملت العربي يكسر الخراج ، فاذا أغرت عشيرته او طالبته أو غرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وانا اعرف مكانه . فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوف بالأمانة وأوهن بالمطالبة منكم ، مع اني جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا احداً» (١) . فاستخدام الاعاجم اذن يتصل بمشكلة اجتماعية مهمة .

ومن ناحية حضارية نجد القبائل العراقية تسكن على الاغلب في مدن منفصلة في الكوفة والبصرة وتحافظ على تقاليدها القبلية لفترة طويلة ، أما تقاليدها الحضرية الاجتماعية فقد تكونت تدريجياً ولكنها تقوم بدور مهم في الفقه وعلوم العربية والتاريخ ، وتصبح البصرة والكوفة من أنشط مراكز الحياة العقلية . وهذا ينسجم مع ما لاحظناه من اتجاه الثقافة العربية الاسلامية . وفي الشام حيث اختلط العرب بغيرهم اكثر مما في العراق ، وحيث مركز الدولة ، نسمع بموجة الترف في العاصمة ، ولكن الروح العربية والتقاليد العربية كانت لا تزال أصيلة قوية . ومع ذلك لم تظهر فيها مراكز عقلية تقابل بالكوفة والبصرة . ولكننا نسمع فيها بمناقشات دينية بين المسلمين والمسيحيين نتيجة لاتصال الآراء ، وبذلك تسرّبت الآراء والمعارف اليونانية والمسيحية الى المسلمين بصورة أولية في العصر الأموي . أما اكثر الجهات تأناً وايغالاً في الترف فهي المدينة ، مع ان المدينة كانت مركز التقاليد العربية الاسلامية ، وакبر مدرسة لاحديث وللعلوم الدينية ، تقابل في اهميتها البصرة والكوفة . وهذا طبيعي لأن المدينة كانت مركز الاستقرارية العربية (من قريش والأنصار) التي ألفت حياة الترف قبل الاسلام والتي تفنبت الآن . وهي مركز تعاليم الرسول ، وفيها تكونت أثتفق زمرة من العرب . والمدينة نفسها شاهد على الاتجاه الثقافي المستقل للعرب ، وعلى تقي نظرية الترقيع الثقافي .

وفي المدينة ازدهر شعر جديد ، غزلي عفيف ، او غنائي رقيق ، يستقي مصادره من هذه البيئة المترفة ، وينسجم مع رقة المدنيين وعدوبتهم . أما الشام والعراق فقد ازدهر فيها الشعر السياسي وشعر المهاجاة حسب مقتضى التصراع بين الأحزاب السياسية وحسب حاجة العصبية القبلية .

ومن الناحية البشرية ، نرجع لنرى ان عامة الغزاة كانوا من الأعراab ، ولكنهم

(١) ابن الأثير (ط. بولاق) ج ، ص ١٩